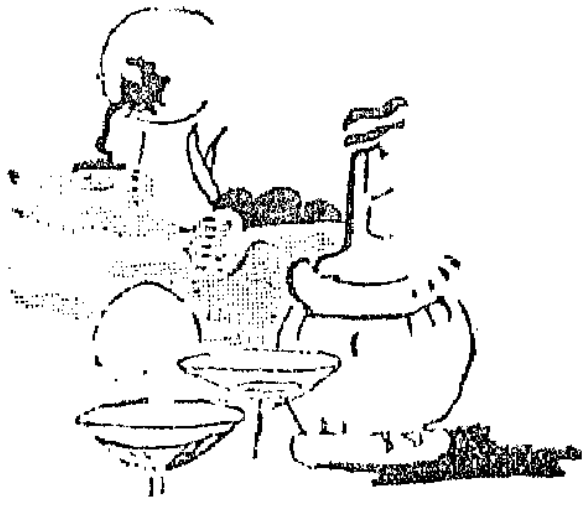

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندري كيف رضيت أن تتنازل عن قميصها بمثل هذه البساطة حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلمنا أنها لم تترك زوجها العاشر الا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » ..

الزوج الحادى عشر

obeikandl.com

شاطىء البحر . . فى صيف العام الماضى . . .

على أبصرت « ابتسام » ، ولاشك أن الإسم قد وقع لدى القارىء موقعاً حسناً . . وأنه يتوقع بعد ذلك أن أصف له هيفاء من فاتنات الصيف . . بمايوه من قطعتين ، برز منها الصدر ، والتف الخصر ، واستقام الساقان .

لا ياسيدى . . آسف كثيراً ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولاربع ذلك .

أقول إنى رأيتها على الشاطىء . . لاتتهادى ، ولاتتمايل بل تسير كالهجين . . تدفع بجسدها الضخم المترهل إلى الأمام وإلى الخلف وتدب بقدميها على الأرض دباً وقد أمسكت حقيبتها بيدها . . حقيبة جلدية من الحقائب التى يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .

البضائع ؟ .

أجل . . الحلقان والأساور والروائح والخواتم التى تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فتكتسب منها رزقها .

لاترع ياسيدى القارىء . . فلقد روعت من قبلك . . عندما سمعت اسمها ثم رأيتها . . بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة (واخشيتاه من أن تقرأ القصة) مجعدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة آمرة غير مستجدية .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط فى حاجة إليها . . فلما انصرفت سألتهم لِمَ اشتروا منها مااشتروا ولِمَ عاملوها بمثل ماعاملوها به . . فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لاتتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فإن بها لوثة ! ومن ذلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا إنها امرأة ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت مايقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه إلى انجلترا ! !

وزارتنا المرأة مرة ثانية . . أو أغارت علينا . . وانسجمت معنا بعض الشىء ، فجلست تقص علينا طرفاً من مغامراتها وزيجاتها . . ثم أنبأتنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكتمت الضحك فى صدرى خشية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لايعدو حديث خرافة . . حتى سمعت بعد ذلك طرفاً من تاريخها . .

من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شىء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة بنادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث إلى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط هدوئه وبأنه ليس هناك مايمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى « أحمد افندى » . . وهو رجل فى منتصف العمر . . مقبول الشكل ، ممتلىء الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة فى كل ماذكرت من الأوصاف فهى لايمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشىء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين . . واقعة لولم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها إلى آخرها . . لقال عنها فرية وأكذوبة .

وبدأ صاحبي يقص عليّ الواقعة . . قال :

ـــ كنا نعمل معاً فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالهـــا مختلف الوجوه التى تفد علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة . . غادة فى جسدها الممتلىء وصدرها البارز إغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتطاولت ببصرى كما تطاول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة . . إلا واحداً لم يحرك ساكناً ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد افندى » . ووقفت الغادة أمام « أحمد افندى » تحييه بابتسامة تذيب الحديد ! ! ونظر هو إليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولا تسل عن الحسد الذى أحسسنا به نحو أحمد افندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد افندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصياً ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة . . .

وطال الحديث بينها وبينه . حديث ناعم رقيق . تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيراً انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الفاتنة وماقصتها ، فتبين لى

أنها التقت بأبيه فى بلدته وتوثقت بينهما عرى الصداقة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل فى البريد وأعطاها عنوانه فلم تكد تصل إلى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق أننى رأيت الفتاة « لقطة » و (استخسرتها فيه) ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل مادام « يعطى الحلق للى بلا ودان » ويباليته بلاأذن فقط .. بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفىّ .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر .. لاتكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها فى أنوفنا .. وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طرباً وحبوراً ، وأخذت معاملة أحمد افندى لها تتطور مع الأيام .. فتبدل جموده رقة ، وخشونته ليناً ، وذهب عنه ذلك البرود والركود .. فهش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ إقباله عليها يزيد المرة بعد المرة .. بل لقد خيّل إلىّ أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول إن هذا هو ماخيّل إلىّ .. حتى حدث ذات يوم حادث ملأنى دهشة .. حادث حاولت أن أجد له تفسيراً وتعليلا ولكن عبثاً .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهمكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد افندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالا ، وقد بدا فى أتم هدوئه ورزانته وعقله ، وقوراً حكيما . . لا يتوقع منه المرء هزلا ولا مجوناً ، ولا عبثاً ، ولا مزاحاً .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم . . عندما تراه قد هبط فجأة عن كرسيه فاختفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟

لقد نظر إلىّ الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهه ذعر شديد وسمعته يهمس :

ــ قل لها إننى غير موجود .

أقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير . . فقد حدث ماحدث فى مثل لمح البصر . . ولم أكد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسناء تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتسامة من ابتساماتها العذبة وتسألنى فى صوت رقيق :

ــ أحمد افندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

ـــ لا يافندم . . غير موجود ؟

وحيتنى بابتسامة أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت إلى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر إلىّ ويهز رأسه متسائلا ، فأجبته :

ـــ لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسيه وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفزع من رؤية الحسناء وسبب تهربه منها كأنه مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تذرع بالصمت وطلب إلىّ أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجىء إلى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع إنذاراً بالخطر فيهبط إلى مخبئه فى لمح البصر حتى إعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد . . فأجبتها بنفس الجواب الذى عودتها عليه « غير موجود » ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها

المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدراء وقالت فى صوت هادىء :

ـ أنا أعلم إنه موجود . . قل له لافائدة من التهرب ، سأعثر عليه إن عاجلا أو آجلا .

ـ هرب ؟ ولِمَ يهرب ؟ وماذا تريدين ؟

ـ ماذا أريد منه ؟ . . إنى زوجته !

إن إجابة المرأة كانت آخر ماكنت أنتظر ، ونظرت إليها مشدوهاً وقلت فى ذهول :

ـ زوجته . . أنت ؟ . . ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد . . .

ونظرت إلىّ المرأة نظرتها إلى إبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه . . أرجوك قل له لافائدة . . قل له يكف عن « الزوغان » ويظهر بالتى هى أحسن ، وإلا . . . .

ودون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد افندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

ـ أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالإيجاب .

— وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالإيجاب أيضاً .

أنبأني باختصار أنه ذهب إليها فى « العوامة » ذات ليلة وأنها أسكرته وعقدت زواجهما واستكتبته تنازلا عن كل مايملك . . .

وتملكنى العطف عليه والرثاء له . . فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن انجليزى .

وهنا صحت :

— قبطان سفينة وكابتن انجليزى ؟ ما إسمها ؟

— ابتسام ؟

— ابتسام ؟ لايمكن . . ! إنها تكون حقاً قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعاً لم تكن حسناء ولاغادة ولا شيئاً من هذا الذى تقوله .

— هل تعرفها ؟

— رأيتها فى الصيف الماضى شوهاء شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك الجمـــال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتمم حديثك . . فلا شك أن الزمن والأزواج العشرة قد فعلوا بها مافعلوا .

وأخذ صاحبي يتم حديثه قال :

ـ قلت لك أنى أحسست نحو صاحبي بعطف شديد وأخذت أفكر وإياه فى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقذه من ورطته ، وتطوعت أنا لمساومة المرأة للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد افندى بل جلس ليواجهها ، وسألتها عما تريد ثمناً للطلاق وللورقة التى معها فأنبأتنى بإصرار أنها لاتريد الطلاق .

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد افندى فى نظرها «لقطة» ثمينة ، وأخيراً نفد صبرى فصحت بها أن تذهب إلى حيث ألقت .

ورمقتنى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطء وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهى تسير إلى الخارج وأنا موجس من نظرتها خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة إلى مكتب المدير .

وأحسست بقلبى يهبط بين جوانحى . . فقد كنا لانخشى أحداً فى ذاك الوقت كما نخشى المدير . إذ كان رجلا جاداً ، قاسياً ، وكرهت أن يكون هو أول من يعرف بالفضيحة

ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد افندى إجراء حاسما رادعاً.

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد افندى فصعد معه، أصفر الوجه، مرتعد الأوصال، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبنى .. ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد افندى أنكر كل علاقة له بالمرأة، وسألنى عما أعرفه، ولم أستحسن أنا فكرة الإنكار فرويت له الحقيقة، وقلت له إنها زلة شباب وإننا نأمل أن يتصرف فى المسألة بعطفه الأبوى.

وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده، وقد ملأنا الخوف والقلق.

وفى اليوم التالى حضرت المرأة، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة، ووقفت أمامنا برهة تحدق فينا بنظراتها ثم حدثت المعجزة.

لقد مدت يدها إلى أحمد افندى بالورقة التى تنازل لها فيها عن أملاكه، وطلبت منه الطلاق.. بلا قيد ولا شرط.

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر، وظننا المرأة تمزح، ولكنها كانت جادة فى قولها.

أية معجزة تلك التى استطاع المدير صنعها.. كيف

استطاع أن يؤثر عليها . . بالضرب . . بالتهديد . . باللين . . بالسياسة . . من يدرى ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها أحمد افندى بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد افندى إلا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! . . لقد كان المدير نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ماحدث ؟ ؟

الله وحده أعلم !